۱۶۵۲۱

مجله	حضارة الاسلام
تاریخ نشر	ج ۱ و ج ۱۳۸۵
شماره	۳ - ۴ - سال ششم
شماره مسلسل	
محل نشر	دمشق
زبان	عربی
نویسنده	محمد عبدالله دراز
تعداد صفحات	۹ - ۱۵
موضوع سرفصلها	اخلاق القرآن
کیفیت	
ملاحظات	

أخلاق القرآن

للدكتور محمد عبد الله دراز

النظرية الاخلاقية

كما تستخلص من القرآن ومقارنة مع النظريات الاخرى

القديمة والمعاصرة

الفصل الاول

الالزام :

تستند النظرية الاخلاقية الجديرة بهذا الاسم على مفهوم الالزام. وهذا هو القاعدة الاساسية والمدار والعنصر الجوهري الذي تدور حوله الجملة الاخلاقية بمجموعها . وان انحسار هذا المفهوم يؤدي الى انعدام روح ومادة الحكمة العملية ، ذلك لان عدم وجود « الالزام » يعني عدم وجود المسؤولية ، واذا انعدمت المسؤولية فلن يكون هناك عودة الى العدالة مما يؤدي الى التشويش وعدم النظام والفوضى في العمل والواجب والمبدأ الاخلاقي .

ونرى نحن في اي اتجاه يود بعض النظريين المعاصرين قيادتنا .

فنجد مثلا غويو Guyau يخطط لنظرية في الاخلاق مهملا وجود الالزام والعقاب . ونحن كيف يمكننا ان نتصور قاعدة اخلاقية بدون وجود الالزام ، افلا يكون هناك تناقض في التعابير . او اننا نود ان نجعل من الضمير آلة بسيطة للتقييم الفني ، ولكن اليس الجمال والاخلاق امرين متميزين . في الواقع ان كل ما هو حسن جميل في ذاته ، ونتساءل هل العكس صحيح ؟.

ليس هناك من احد يشك بأن مفهوم الفضيلة له جماله الاصيل الذي

تتمتع بتذوقه النفوس الانسانية ومع ذلك فانه لا يسحر العيون ويمكننا ان نضيف شيئا آخر : فالفضيلة وفقا لطبيعتها تكون فاعلة ومحركة وتحثنا الى العمل لنصنع منها حقيقة مجسدة . اما الشعور بالجمال اذا اقتصر على تعبيره البسيط ، فليس له اي أثر على الفعل وخاصة اذا كان موضوعه لا يستمد من ارادتنا نحن . وهكذا فان اعجابنا بالقدرة الالهية أو بعظمة القبة السماوية لا يحملنا لان نخلق منها نماذج اخرى . وكذلك فان الفنان نفسه حينما يتصور فكرة عمل قابل للتحقيق ، فان ذلك لا يدفعه ابدا لان يضع هذه الفكرة موضع التنفيذ : وانما يدعوه بكل لطافة الى تنفيذها عندما تتحقق له الرغبة أو التسلية . اضافة الى ذلك ان هذه الفكرة اذا تعينت من أجل البعض فلن تتعين من أجل الآخرين بنفس الضرورة الملحة. وفي جميع الاحوال تعبر فكرة الفضيلة عن المشاعر دون ان تعاكسها . ولنزد على ذلك بأن اي خطأ يرتكب في عمل فني يصدم بالتأكيد الحواس ولكنه لا يدفع الضمائر الى الثورة ولا يصبح المرء (لا اخلاقي) من أجل هذا الخطأ الفني العظيم .

ومن بين هذا يمتاز الحسن الاخلاقي بهذه السلطة الآمرة تجاه الجميع، وبهذه الضرورة التي يشعر بها كل انسان في تنفيذ الاوامر نفسها مهما كانت الحالة التي عليها مشاعره ، هذه الضرورة التي تجعل المعصية شنيعة ومقيتة .

وسنرى فيما بعد الصورة التي يظهر فيها القرآن هذه الضرورة التي يدعوها أحيانا بالامر او الكتابة أو الفريضة .

بعد أن رأينا حتمية مبدأ الالزام وتحديده اسميا ، علينا ان ندخل الآن في معرفة طبيعته بتمحيص اصوله ومميزاته ومناقضاته .

١ ــ مصادر الالتزام الاخلاقي :

لقد استطاع الفيلسوف الافرنسي هنري برغسون أن يكتشف في تحليله العميق الالزام الاخلاقي مصدرين رئيسيين : أولها قوة الضغط الاجتماعي والثاني قوة الجاذبية الاوسع من الانسانية أو بالاحرى الجاذبية الالهية .

ويبين برغسون أن اداء الواجب يبدو بالقيام بالمهمة التي حددها المجتمع وباتباع طريقه التي خطها لنا والتي نستسلم لها يوما بصورة من صور العادة القليلة التفكير والتي تقلد غريزة النحلة أو النملة . واذا ما قاومنا هذا الواجب لحظة أو حاولنا ان نغير في مخططه نرى انفسنا منقادين طوعا أو كرها لهذه القوة القاهرة من الحياة الجماعية .[1]

وليس الامر كذلك في المصدر الثاني ، فبينما يكون خلق الجمهرة ناتجا عن تأثير القهر الجماعي نجد ان خلق اصحاب المزايا ناتج عن التطلع نحو المثل الاعلى . ذلك هو هيمان (يقصد) الحب المبدع الذي يميل ليس فقط الى توجيه سلوك الفرد نحو الاتجاه الافضل ، ولكن يسحب معه المجتمع ويقوده بدلا من أن يكون منقادا له (١) .

ومن ناحية الوصف والتحليل للحادث الذي تقدمه لنا التجربة ، نستطيع ان نقول ان الدراسة (البرغسونية) لم تحذف كثيرا من الامور الجوهرية ، وأما فيما يتعلق بنظرية الالتزام الاخلاقي فان هذا التحليل يبدي بعض الصعوبات وبعض الانحراف (الميل) عن وجهة النظر القرآنية .

وفيما يتعلق بالوصف وطالما ان الامر يهدف الى تحديد جميع القوى المؤثرة في الارادة ، نستطيع ان نتساءل لماذا لا يشار الى عامل ثالث أكثر قدما واعمق ترسخا في الطبيعة الانسانية علينا معرفته الا وهو الذات L,Zudiseiduel أو القوة الحية ذلك لان الذي يهم من أجل كل مواطن ليس فقط أن يمتثل الى أوامر المجتمع وان يسلك في الجسم الاجتماعي كسلوك خلية من خلايا العضوية ولكن عليه ايضا ان يبحث عن حفظ نفسه مستقلا عن المجموعة التي يتبعها . ولندع الآن هذه الفكرة جانبا .

ان اخطر ما في الامر انه يبدو في هذا التحليل أن تعبيري الالتزام والاخلاق يتنافران ويناقض كل منهما الآخر . لانه في الوقت الذي يصبح فيه الالزام قهرا شبه غريزي فانه يفقد صفته الاخلاقية ، وبالمقابل فان بداهة الحب هي معاكسة تماما للالزام . وفي الواقع ان الحقيقة الاخلاقية

(١) انظر كتاب برغسون : مصدرا الاخلاق والدين ، الفصل الاول .

لا تجد مكانها في اي من الحالتين السابقتين . فالانسان يقدم لنا على صورة العوبة بيد قوة ما مدفوعة تارة بتأثير الغريزة وتارة اخرى محمولة بتأثير العاطفة ، ولم يقدم لنا ابدا على انه شخصية مستقلة قادرة على المقارنة وتقييم الامور وانتقاء ما يناسبه . اذن ، كيما نتحقق الاخلاقية فلا يكفي ابدا ان يقدم لنا المثل الاعلى وكانه الشيء المحسوس لارتقاء النفس المتحمسة الى الله ، ولا على انه امر من البيئة كالضريبة الجائرة المفروضة . ويخضع كل منهما في الضمير الى احكام واتقان حقيقي بحيث يخرجان بصورة جديدة كانهما باعثان للعدالة ومؤازران ومفروضان من قبل العقل . وطالما ان انجراف المثل الاعلى لا يرتدي هذه الصفة الامرية والعقلية ، وبما ان الامر لا يتعلق بملاحقة السراب او بملاحقة حلم وهمي ، فانه يبقى ايضا محددا ببعض الاحساس للجمال . وعلى الرغم من ذلك فان هذا الشعور الجميل لا يمكن ان يكون مبدءا اخلاقيا . ويبقى الامر كذلك من اجل كل خضوع غير مبرر والذي يسلك سلوك الارهاب الجماعي .

لذا فاننا نرى القرآن الكريم يقف دائما في وجه هذين العدوين من الاخلاقية : اتباع الهوى والاقتداء الاعمى « فلا تتبعوا الهوى ان تعدلوا ٤/١٣٥ — ولا تتبع الهوى فيضلك ٣٨/٢٦ — قالوا انا وجدنا آباءنا على امة وانا على آثارهم مقتدون ٤٣/٢٢ — ٢٣ » . وان الذين يودون على غير بصيرة استمرار التقاليد والعادات ، أيفعلون ذلك « ولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون ٢/٧٠ » .

وهكذا فان البصيرة والحرية والشرعية هي العناصر الجوهرية التي ادى انحسارها الى هوة سحيقة في التحليل البرغسوني . وانه ليس من مانع ان يقلل من اعتبار الدور التصويري للملكة العقلية ، وليس من مانع ايضا ان يلح على التأثير الضعيف الذي تقدمه في مقاومة الاهواء ، الا ان الجوهر الاخلاقي نفسه يكمن في الفعالية المفكرة الموجودة في ذاتنا .

اما كانت Kant فعلى الرغم من بعض الاخطاء في طريقه عرضة لعقيدته ، فقد كانت نظرته اكثر صحة عندما اكد انه اكتشف مصدر الالزام الاخلاقي في هذه الملكة العالية من النفس الانسانية المستقلة في الوقت ذاته عن الميل (الهوى) وعن العالم الخارجي . ويذكر كانته بأن الواجب (الفريضة) اسم جليل وعظيم ومصدر جدير بك انت حيث تجد فيه جذر اصلك النبيل . ولن يكون هذا الا الامر الذي يرتفع بالانسان الى مستوى

اعلى منه ويربطه بمجموعة من الاشياء يستطيع العقل وحده ادراكها (١) .

ولما كان الانسان يتبع في الوقت نفسه عالم الادراك وعالم المحسوس فان له طبيعتين مضاعفتين : الطبيعة النبيلة منهما وهي العقل تقود الطبيعة الادنى وهي حب الذات اللاشرعي . وان هذا الطريق من العقل واضح جدا وقوي النفوذ وسهل الادراك حتى من قبل الاناس العاديين جدا . ان حدود الاخلاقية وحب الذات محددة مع كثير من الوضوح والصحة حيث ان النظرة العادية تستطيع بسهولة ان تميز اذا كان شيء ما يتبع لهذا الامر او لذاك .

وهكذا فان النظرية الكانتيه بعد ان تختزل الى شكلها البسيط وان تخلص من كل حدة فكرية صورية ومتعالية ، وان تصفى ايضا من كل تشاؤم جذري ومن بعض الفتور العاطفي ، ليست قابلة للاعتراض فحسب وانما تتطابق على ما نعتقد مع العقيدة التي تنبثق عن القرآن .

ويعلمنا الكتاب الكريم بأن النفس الانسانية تلقت في بنيتها الاولى معنى الخير والشر « ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها ٩١/٧—٨ »

وان الانسان بالاضافة الى ملكته الكلامية واحساساته الخارجية فانه يتمتع ايضا ببصيرة اخلاقية خاصة « بل الانسان على نفسه بصيرة ٧٥/١٤ » كما انه عرف من قبل طريق الفضيلة والرذيلة « وهديناه النجدين ٩٠/١٠ » . ومما لا شك فيه « ان النفس لامارة بالسوء ١٢/٥٣ » الا ان الانسان قادر على ان يسيطر على ميوله ورغباته وفي ذلك سينال النعيم المقيم « واما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فان الجنة هي المأوى ٧٩/٤٠ » واذا كان الناس جميعا لا يطبقون هذا التأثير على انفسهم ، الا اننا نجد ان بعضهم يعملونه بالاستعانة بالله . وهكذا نسمع من رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « اذا اراد الله بعبد خيرا جعل له واعظا من نفسه يأمره وينهاه ؛ رواه الديلمي عن ام سلمة في مسند الفردوس وذكره السيوطي في الجامع » .

اذن ، يوجد في الانسان قوة داخلية لا تستطيع ان تقدم له النصح

(١) انظر كتاب كانت : نقد العقل العملي Critique de la Raison brotje

وتنير له الطريق فحسب ، وانما تقدم له اوامر للعمل أو للنهي .

ونحن نتساءل ماذا يمكن ان تكون هذه السلطة الباطنة التي تدعي انها تتحكم بكل ملكاتنا الدنيا ، اليست هي الجزء المبصر من نفسنا الانسانية والذي ندعوه بالعقل ؟ ! والقرآن يظهر لنا هذه الصفة بتعبيراته الخاصة حينما يتكلم عن الكافرين فيقول : « ام تأمرهم أحلامهم بهذا أم هم قوم طاغون ٣٢/٥٢ » . ونضيف على ذلك بانه خارجا عن سلطة العقل لا توجد قاعدة أخرى مشروعة للسلوك وهي السلطة الشرعية الوحيدة .

وفي هذه الشروط ، يمكننا ان نقول مع كانت باننا في آن واحد مشرعون ومحكومون ، والتجربة الاخلاقية لوخز الضمير لا تقوم في الواقع الا على اثبات هذه الثنائية . فنحن حينما نتخلى عن القيام بواجباتنا نشعر باننا نهوي الى مستوى غير مستوانا ونعترف بصورة آلية باننا مخلوقات نبيلة ساقطة . ولا ينقطع القرآن ابدا ان يبعث ويوصل في نفوسنا هذا الشعور بكرامتنا الاصلية . فالله سبحانه لم يكرم الانسان ويبسط سلطته على الارض والبحار فحسب بل انه رفعه عليا فوق كثير ممن خلق « ولقد كرمنا بني آدم ... وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا ٧٠/١٧ » . وكذلك فقد اظهر الله تبارك وتعالى هذه الكرامة حينما امر الملائكة بالسجود لآدم « واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم ٣٤/٣ » . والقرآن الكريم عندما يترك جانبا هذه المظاهر الخارجية للكرامة الانسانية ويضعنا بمرأى من وجهة النظر الاخلاقية فانه يبدو لنا انه لا يعتبر الطبيعة الانسانية سيئة للغاية وانها فاسدة لا يمكن اصلاحها ، بل على العكس ان الانسان خلق في احسن تقويم « لقد خلقنا الانسان في احسن تقويم ٤/٩٥ » وليس هناك الا الذين لا يؤمنون ولا يعملون الاعمال الصالحات ، الذين يتمتعون بالهلع والجزع « ان الانسان خلق هلوعا ، اذا مسه الشر جزوعا . واذا مسه الخير منوعا الا المصلين ١٩/٧٠ — ٢٢ » ويرتدون الى اسفل سافلين « ثم رددناه اسفل سافلين ، الا ... ٥/٧٠ » وليس هنا الا اولئك الذين « لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها اولئك كالانعام ، بل هم اضل ١٧٩/٧ » فالموضوع اذا ان هناك اختيارا حرا دنيويا وليس عالي الشان . والامر كله يتعلق باستعمال ملكاتنا العليا

بصورة حسنة او بصورة سيئة ، هذه الملكات التي يرتفع شانها بالثقافة وتظلم بالترك والهجران « قد افلح من زكاها وقد خاب من دساها ٩١/٩ — ١٠ » .

والقرآن لا يقتصر فقط على الملكات العقلية ، بل انه يعتني كثيرا في ايقاظ المشاعر النبيلة والمشروعة . ولكنه لا يدعها تعمل الا تحت اشراف العقل ومراقبته . وهكذا يتوجه القرآن الينا دائما اي انه يتوجه الى هذا الجزء المضيء في اعماق نفوسنا ، الى ملكتنا في الفهم وتقدير الامور في خيرها وشرها وتقدير قيم الاشياء على اختلاف انواعها .

ومن بين المشاعر السامية التي يوقظها القرآن في نفوسنا نذكر على سبيل المثال شعور الاخاء الانساني « خلقناكم من ذكر وانثى ٤٩/١٣ » الذي يوجد مستندا على جميع واجباتنا الاجتماعية في المعنى الواسع لكلمة « المجتمع » . وهكذا نرى مثلا ان القرآن لكي يمنعنا من أن نغتاب انسانا يعطينا صورة حسية عن البشاعة الناتجة عن الغيبة بمقارنتها مع الانسان الذي يأكل لحم أخيه على كره منه « أيحب احدكم ان يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه ٤٩/١٢ » .

ولكن اذا كان الامر كذلك الا يمكن ان نستنتج بانه في حالة انعدام اي تعليم ايجابي ، الا يملك الانسان منذ القديم جميع الوسائل الضرورية العقلية والعاطفية ليميز الذي يعمله من الذي عليه أن يتجنبه . وحينئذ الا يصبح التشريع في الخير والشر امرا يتعلق بنا فحسب .

ان علينا أن نحدد بدقة اتجاه ومدى مثل هذا الادعاء . وهل علينا ان نقتصر على وجهة النظر الانسانية ونهتم خاصة بالضمير الفردي ام ان علينا ان نقتصر على وجهة نظر الاشياء كما هي في حقيقتها ؟ !

وطالما ان مفاهيم الخير والشر اصبحت محددة عقليا كصفة كمال او نقص ، موافقة للطبع او مخالفة ، مستحقة للمدح أو الذم فان الفقهاء المسلمين لا يظهرون اي صعوبة في قبول كفاءة الانسان التشريعية في هذا الموضوع .

ولكن الذي نحكم عليه بانه جيد أو فاسد من وجهة نظرنا أيكون كذلك في حقيقته ، وبتعبير آخر هل هو كذلك من وجهة النظر الالهية ؟ ! .

للبحث صلة

منهج رسول الله

بسم الله الرحمن الرحيم

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قال :

« سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لا ظِلَّ إِلاَّ ظِلُّهُ : إِمامٌ عَادِلٌ ، وَشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبادَةِ اللهِ ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ بِالْمَسْجِدِ إِذا خَرَجَ مِنْهُ حَتَّى يَعُودَ إِلَيْهِ ، وَرَجُلانِ تَحابَّا فِي اللهِ فَاجْتَمَعا عَلَى ذٰلِكَ وَافْتَرَقا عَلَيْهِ ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللهَ خالِياً فَفاضَتْ عَيْناهُ ، وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمالٍ ، فَقالَ : إِنِّي أَخافُ اللهَ رَبَّ الْعالَمِينَ ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفاها حَتَّى لا تَعْلَمَ شِمالُهُ ما تُنْفِقُ يَمِينُهُ » .

« أخرجه الشيخان »

وَعَنْهُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قالَ :

« مَنْ خَرَجَ مِنَ الطَّاعَةِ وَفارَقَ الْجَماعَةَ فَماتَ ماتَ مِيتَةً جاهِلِيَّةً ، وَمَنْ قاتَلَ تَحْتَ رايَةٍ عُمِّيَّةٍ يَغْضَبُ لِعَصَبَةٍ ، أَوْ يَدْعُو إِلَى عَصَبَةٍ ، أَوْ يَنْصُرُ عَصَبَةً فَقُتِلَ فَقِتْلَتُهُ جاهِلِيَّةٌ ، وَمَنْ خَرَجَ عَلَى أُمَّتِي يَضْرِبُ بَرَّها وَفاجِرَها ، وَلا يَتَحاشَى مِنْ مُؤْمِنِها ، وَلا يَفِي لِذِي عَهْدٍ عَهْدَهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَلَسْتُ مِنْهُ » .

« أخرجه مسلم »

أخلاق القرآن

للدكتور محمد عبد الله دراز

النظرية الأخلاقية كما تستخلص من القرآن
مقارنة مع النظريات الاخرى القديمة والمعاصرة

الفصل الأول

الإلزام

- ٣ -

١ ـ القرآن : القرآن في نظر المسلمين هو كلام الله حقا، وهذا ما يجعله المصدر الاول لبيان ارادة الشارع ، ولكن : الا يجب ان ينظر الى القرآن على انه المصدر الوحيد للتشريع الاسلامي ؟ اننا ان قبلنا الى جانب القرآن بمصدر آخر مباشر وحقيقي ، فكأننا نشارك مع حاكمية الله مصادر اخرى للتشريع ، تتمتع بنفس الحق الملزم في الأمر والنهي . ولنر الآن الى اي حد تتمتع المصادر الاخرى بقوة الالزام .

٢ ـ السنة : اتفقت الأمة على اعتبار السنة « أوما اثر عن الرسول »(١) مصدرا ثانيا وهاما من مصادر التشريع الاسلامي بعد القرآن . ويبدو ان القرآن نفسه يوجب على المؤمنين ان يخضعوا دون قيد الى جميع اوامر الرسول :

— من يطع الرسول فقد اطاع الله (٤ — ٨٠)
— فلا وربك لايؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم (٤ — ٦٥)
— واطيعوا الرسول لعلكم ترحمون (٢٤ — ٥٦)
— وما آتاكم الرسول فخذوه ومانهاكم عنه فانتهوا (٥٩ — ٧)

ولكن لدى التحقيق يرى ان جميع الاوامر النبوية لايمكن ان تحدد إلزاما نهائيا ، اخلاقيا كان ام شرعيا أم دينيا الا بشرط ان تكون الفكرة التي تتضمنها هذه الاوامر ترتدي صفة الوحي الصريح او الضمني . وحينما تفقد هذه الخاصة الالهية : فان الدرس والمثال المعطيين من « الانسان » يفقدان كل سلطتهما :

— يا ايها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول اذا دعاكم لما يحييكم (٨ — ٢٤) .

---

(١) نقصد بذلك مجموع اقوال الرسول وافعاله وتقريراته ومواقفه المضمرة الدالة على الاستحسان او الرفض (الاستنكار) .

والرسول نفسه يقرر هذا المبدأ بصورة واضحة وقطعية حينما يقول: « اذا أمرتكم بشيء من رأيي فانما انا بشر ، ولكن اذا حدثتكم عن الله شيئا فخذوا به فاني لن اكذب على الله » : (صحيح مسلم ــ كتاب الفضائل ــ ٣٧).

ويضيف الرسول الى ذلك بأن آراءه الشخصية عن الحياة اليومية تخرج عن طبيعة مهمته والرسالة التي كلف بتبليغها : « انتم اعلم بأمر دنياكم » (صحيح مسلم ــ كتاب الفضائل) . واما فيما يتعلق برسالته الالهية فان الامر الاخلاقي او الشرعي او التعبدي اذا لم يكن مؤيدا بالوحي فمن الممكن ان يقع في بعض الاخطاء الطفيفة . وهكذا نرى أن القرآن يعاتب الرسول مرات عديدة لانه يتلطف في مصير الكافرين ولانه وقف منهم موقفا رحيما جدا ، في الوقت الذي كانوا يستحقون فيه موقف الشدة وعدم المسالمة :

ــ ما كان لنبي ان يكون له اسرى .. (٨ ــ ٦٧)
ــ لِمَ اذنت لهم .. (٩ ــ ٣٤)
ــ ما كان للنبي والذين آمنوا ان يستغفروا للمشركين (٩ ــ ١١٣)

ولنذكر في هذا المجال مثالا جميلا حينما يخاطب الرسول صلى الله عليه وسلم يوما بعض المتخاصمين قبل ان يفصل في قضيتهم فيقول : « انما انا بشر . وانكم تختصمون الي . ولعل بعضكم ان يكون الحن بحجته من بعض . فاقضي بنحو ما اسمع ، فمن قضيت له بشيء من حق أخيه فلا يأخذه . فانما أقطع له قطعة من نار » (صحيح البخاري ــ كتاب الاحكام الباب ١٩) .

ولقد صادف مرة انه صلى الأربع ثنتين ثم اتم بعد ان ذكّره الناس . روى ابو هريرة « ان رسول الله صلى الله عليه وسلم انصرف من ثنتين فقال له ذو اليدين : اقصرت الصلاة أم نسيت يارسول الله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أصدق ذو اليدين ؟ فقال الناس : نعم ، فقام رسول الله فصلى اثنتين اخريين ثم سلّم ، ثم كبّر فسجد مثل سجوده أو اطول » (البخاري ــ كتاب الصلاة الباب ٣١) .

اما حالة العصمة المطلقة فلا تتحقق مع الرسول الا حينما يبلغ أمرا الهيا . وحينما يوكل اليه أمر هذه المهمة وتقدم اليه واضحة تماما وتحفظ في ذاكرته العامة : فان الضعف الطبيعي الذي يصيب كل انسان مهما كان عقله قويا ولامعا ، يمكن ان يصيب الرسول أيضا . ولكن الفرق هنا ان هذا الضعف لايستمر ابدا ولا يبقى مطلقا على فكرة خاطئة . فاذا لم يعد من نفسه الى الطريق القويم ، فان الوحي يتدخل ليهديه ويقوده الى الطريق

الصحيح . والا فان الأمة جميعها تقع في الخطأ وترتبط به في طريق خاطئة، والله يقول :

ــ « وما كان الله ليضل قوما بعد اذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون» (٩ ــ ١١٥) .

وينتج من ذلك انه في الحال التي ليس فيها اي تصحيح ، فان اوامر الرسول واحكامه التي لاينكرها الوحي تعتبر مقبولة ضمنيا وتؤخذ بمثابة الاوامر الالهية . وكذلك فان جميع تصرفاته هي من حيث المبدأ امثلة حية ينظم المسلمون وفقها جميع تصرفاتهم وسلوكهم ..

وبالاجمال فان كل حديث صحيح غير منسوخ والذي تشكل غايته جزءا من الرسالة النبوية ، ليس في الحقيقة إلا تعبيرا عن الارادة الالهية ، ويتمتع بنظر المسلمين بنفس السلطة الاخلاقية التي يتمتع بها النص القرآني . واذا تضمن الحديث تفصيلا وتدقيقا إكثر من النص القرآني ، فالحديث هو الذي يحكم النص القرآني ويفسره ويحدد أهميته ويعين طريقة تطبيقه(١).

٣ ــ الاجماع : لنتساءل الآن عن السلطة التي تمنح الى المصدر الثالث للتشريع المسمى بالاجماع أو اتفاق الامة جميعها على امر ما .

يستمد الاجماع سلطته في الواقع من بعض النصوص القرآنية :

ــ « كنتم خير امة اخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » (٣ ــ ١١٠) .

ومهما كان النص موجها الا الأمة المحمدية عامة او كما يبدو الى الاجيال السابقة التي رافقت الوحي ، فان هناك جماعة من الناس يحكم على رأيها العام من قبل الكتاب بأنه رأي معصوم من الناحية الاخلاقية، ولا يمكنه ان يسمح بالخطأ او ان يمنع الخير .

---

(١) ــ « السنة قاضية على الكتاب » يروي الدارمي هذا الحديث في سننه (المدخل الباب ٤٨) . وعندما سئل احمد بن حنبل عن هذا الحديث قال : لا أستطيع ان اقول هذا الكلام بل انما اقول : ان السنة تشرح الكتاب وتوضحه ، وهو يريد في هذا ما اذا كان راوي الحديث اعطى الفكرة الاساسية ولكنه لم يستعمل التعبير المناسب الذي يبدو انه يقلب الترتيب الطبيعي بين القرآن والسنة . ونحن نعلم انه اذا تعارض حديث مع النص القرآني رجح النص القرآني ، فمثلا حديث « ان الميت يعذب ببكاء أهله» لم تأخذ به عائشة لانه يتعارض مع النص القرآني : « ولا تزر وازرة وزر اخرى » (٦ ــ ١٦٤) (انظر البخاري : كتاب الجنائز ٣٢) .